تاريخ

«مصر الأخرى» لفاضل الربيعي: نقد القراءة الاستشراقية

حسن نصور

يواصل الباحث العراقي فاضل الربيعي (1952) سلسلة إصداراته في ما يمكن عدّه تصحيح مكامن الخلل في القراءة الاستشراقية لمفاصل هامة من التاريخ القديم، ونعني تاريخ الشرق الأدنى، لا سيما فيما يتّصل بالتأسيس التاريخيّ لـ «إسرائيل» في جنوب الشام. نعني فلسطين.

محور إصداره الجديد «مصر الأخرى» (رياض الريس) ـ الذي يندرج في إطار أبحاث سابقة، منها مجلدا «فلسطين المتخيّلة: أرض التوراة في التاريخ القديم» ــ يهدف إلى كشف ثغرة «مصر» الواردة في النصوص القديمة: النصوص الآشورية والسجلات المصرية القديمة، ونقوش ممالك اليمن القديم، ونعني النقوش السبئيّة والمعينية والحميرية.

تتأسّس قراءة الربيعي، عموماً، على كشف المغالطات الفادحة في القراءة الاستشراقية لناحية مطابقة أسماء المناطق والقرى والأشخاص التي وردت في التوراة، مع أسماء مناطق وقرى تقع في فلسطين اليوم والشام عموماً.

في هذا البحث، يُقيمُ الربيعي قراءة يعتبرها الأكثر معقولية من ضمن القراءات التي تتصل بحقبة ممالك الإسرائيليين، من أواخر الألف الثاني قبل الميلاد وصولاً إلى الحقبة السبئيّة، أواسط الألف الأوّل قبل الميلاد. قراءة تحيل إلى أعمال الباحث والمفكر اللبناني كمال الصليبي، وتحديداً مؤلفه الشهير «التوراة جاءت من جزيرة العرب». على أن الربيعي ينحو منحىً تفصيليّاً في ضوء بعض المعطيات النقشية المكشوف عنها حديثاً (نقش صخرة واحة تيماء للملك رمسيس الثالث 1192 ق. م- 1160ق.م مثالاً لا حصراً). نتحدث، إذن، عن خلاصات مثيرة تتعلق بردم ثغرات تتصل بأحداث تاريخية فاصلة ظلت تفتقد، برأيه، إلى قدر من المعقولية.

قدس\قدش\قادش

مثالاً لا حصراً، ينفي صاحب عشاء المأتم (1984) وقوعَ المعركة الشهيرة بين الآشوريين والمصريين بقيادة رمسيس الثاني في ما يعرف، اليوم جغرافياً، برفح الفلسطينية من ضمن حملة آشورية كبيرة نتج عنها أسر ملك مصريّ ورد اسمه في النقوش القديمة. يكفي ـ بحسب الربيعي ـ مقارنة متن التوراة مع نقوش مصرية وآشورية قديمة لبناء منظور مغاير أكثر تماسكاً عن معركة قادش بين الآشوريين والمصريين فوق برّ فلسطين اليوم. بنتيجة المقارنة، ليست «قدس\ قدش» (السين والشين تتبادلان الأدوار في اللغة العبرية) المذكورة في التوراة هي الموضع المقدس الشهير في فلسطين، البلد العربيّ اليوم، كما درجت على ذلك القراءة الاستشراقية. نتحدّث عن جبل قدس/ قدش في منطقة الجوف اليمنيّة في مملكة «معين –مصرن»، التي كانت هدفاً لحملات الآشوريين وتحديداً «تجلات بلاسر الثالث» في ما يعرف في الأوساط الأكاديمية بمعركة قادش. الملك المصري المأسور ليس، إذن، ملكاً\ فرعون مصر (رمسيس الثاني)، بل هو ملك هذه المملكة اليمنية القديمة. تقدم لنا هذه القراءة، تصوّراً واضحاً عن كون الحملات الآشورية لم تستهدف البر الشامي، بل إنّها تتوجه في الأصل إلى جنوب الجزيرة العربية، والمعارك في الأساس كانت في سبيل تطويع تلك القبائل التي تستوطن جبال وسهول اليمن الخصيبة.

بمقارنة منهجية لنصوص التوراة والسجلات المصرية القديمة (سجل الكرنك الشهير) مع نقوش سبئية ومعينية قديمة، أمكن فكّ ثغرات مهمة من ثغرات تلك الحقبة. ونعني الانتباه إلى كون النقد الاستشراقيّ للتوراة قد أغفل ما يمكن اعتباره شبه تطابق منطقيّ بين المدونات القديمة (التوراة) من جهة والمعطيات المثيرة المتضمنة في النقوش السبئية والحميرية والمعينية القديمة.

مصر التوراة

إذن، مصر الإقليم العربي اليوم، ليست مصر المقصودة في التاريخ الرسمي المكرس لمملكة اسرائيل القديمة. وبحسب الربيعي، يتحدث نصّ التوراة عن ورود اسم مصر والمصريين في التوراة بأربع صيغ رئيسية: «مصري»، «مصريم»، و«مشفحات ها مصريم» (أي عشائر المصريين) و«مصريم في أرض جازان». كلّها صيغ مختلفة، وكلٌّ منها له مدلول محدّد، فـ «مصري» لا يمكنه أن يكون هو ذاته «مصريم». كذلك، فإن تعبير عشائر المصريين لا يطابق وصف مصر الاقليم. كما أن مصر لا تقع في أرض جازان بحسب الصيغة الرابعة. في المقابل، وبحسب الربيعي، فإن نقوش المسند اليمنية قد أوردت اسم «مصريم» التوراتي في صورة «مصرن» وهي صيغة تتطابق مع الصيغة التوراتية (لأن مصريم هو اسم النسبة من مصر)، فضلاً عن كون «معين-مصرن» هو اسم دال على مملكة – مجتمع ينتمي إلى مكان يدعى مصر. وحتى اليوم ثمة قرية تدعى قرية المصري في محافظة «إب» (ص46).

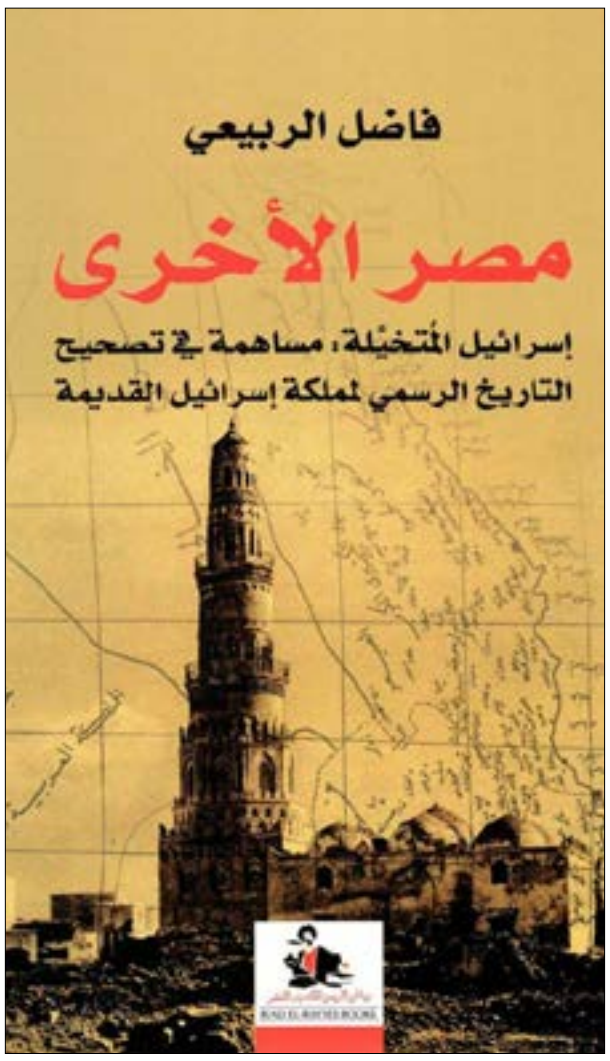

تقاطع مع كمال الصليبي، وتحديداً مؤلفه «التوراة جاءت من جزيرة العرب»

تفترض هذه القراءة أن جنوب الجزيرة العربية ـ اليمن حالياً ـ هو المسرح المنطقيّ للأحداث والمعارك بين الآشوريين وقبائل الاسرائيليين من سكان هذه المنطقة، وكذلك الأمر، هو مسرح المعارك بين تلك القبائل فيما بينها للسيطرة على طرق التجارة البحرية وعلى منتَج البخور الثمين، حاجة المعابد الآشورية. ممالك بني إسرائيل، الوارد ذكرهم في النصوص القديمة، هم أنفسهم، قبائل يمينة اعتنقت اليهودية، والصراعات بين ممالك الجنوب والشمال. ونعني بهوذا والسامرة ـ في حقبة الانقسام بعد موت سليمان، قد وقعت بين ممالك حميرية من الجنوب وسبئية من شمال اليمن. وبالنتيجة، يصحّح الربيعي الخلط الشائع بين اليهود وبني إسرائيل. فبني إسرائيل «هم قبيلة عربية يمينة كفت عن الوجود مثل عاد وثمود. أما اليهودية، فهي دين عربي يمنيّ قديم. فليس كلُّ يهودي من بني اسرائيل بالضرورة. وفي المقابل، ليس كلّ بني اسرائيل يهوداً».

عموماً، يبقى تاريخ مملكة إسرائيل وكلّ ما يتصل بتلك الحقبة إشكالياً كونه واقعاً في قلب الصراع الهوياتي الذي قد «يؤسس» لحقوق سوف تغدو ذرائع لتبرير كيانات دينية ذات طابع «ديني/ إثني» في منطقة شكلت قلب العالم القديم. على أن القراءة الاستشراقية للتوراة هي القراءة المكرسة أكاديمياً، بطبيعة الحال. قراءة اندرجت في سياق طويل من سعي الدول الغربية الرئيسية إلى وضع المنطقة العربية والشرق الأدنى عموماً في تشكيل يخدم تصورات المؤسسة الاستعمارية التقليدية. بهذا، تبقى أبحاث الربيعي ومن قبله الصليبي على أهميتها في حاجة ماسة إلى تجذير مؤسّسيّ وأكاديمي على نطاق أوسع من شأنه خدمة الإحالات التي يفترض أن تؤدي إليها إعادة تأسيس حقبة مملكة اسرائيل القديمة.

مذكرات

الصادق بن مهني: السجن مرآة للتاريخ

حبيب الحاج سالم

في كتابه «سارق الطماطم أو زادني الحبس عمراً» (دار سيراس)، يغوص الصادق بن مهنّي في تفاصيل تجربته داخل سجون نظام الحبيب بورقيبة، واسترجاع صور شخصيّاتها، بعيداً عن ثنائية الملائكة والشياطين وبقيّة الثنائيات المنبثقة عنها.

في أحد أيام حزيران (يونيو) 1980، أفاق الحبيب بورقيبة في قصره الرئاسي، جهّز نفسه ثمّ جلس في مكتبه ليبدأ يوماً آخر من العمل. كان له لقاء مع مجموعة من الشبّان. وصل المدعوّون، كانوا شباباً يافعين وأنيقين. أُعجب بهم الرئيس، سألهم عن عدد السنوات التي قضوها في السجن، واستنتج، ارضاءً لأناه، أنّ ما قضّاه هو مسجوناً ومنفياً يتجاوزها. وبعد تبادل أطراف الحديث، انتهى اللقاء بالعفو عنهم، وترك مسألة العفو عن بقيّة رفاقهم لذكرى مولده. كان من بين أولئك، الصادق بن مهنّي، الذي أنهى بهذا المشهد سيرته السجنيّة هذه. في استرجاعه للمشهد، لم ينس الصادق أن يذكّر بما شعر به وأسقطه بيان رئاسة الجمهوريّة حينها. بعد ربع قرن من الحكم، وما يقارب خمسة عقود من العمل السياسي، كانت أجهزة النظام تجهد لاستبقاء «كاريزما» الزعيم وصورته المشرقة. أما بالنسبة للشاب القادم توّاً من السجن، فقد كان الأمر مختلفاً، يقول: «لكنّني عندما دخلنا مكتبه وجدته «عجوزاً» تفشل المساحيق رغم كثافتها في التخفيف من وجهه وحدّتها، ثم رأيت حركات يديه وقفزه يبغي مغالبة قصره ومكابدته ليظلّ واقفاً طوال اللقاء فكاد يغالبني الضحك».

يلخّص الوصف كلّ الحكاية، ينتمي المؤلف إلى جيل تجاوز زعامة «الزعيم» وسلطته الشخصية. هو ينتمي إلى جيل سياسي متعلّم، وإن كان ابن سياسات نظام بورقيبة، إلاّ أنّه يعارضه (أليست الأضداد من بعضها تتوالد؟). تروي السيرة، بالأساس، سنوات سجن المؤلف ورفاقه في منظمة «آفاق» اليساريّة. لم تكن المنظمة بالقوّة التي تمكنها من إسقاط النظام، لكن ضربها كان لرمزيّة ما تطرحه.

كان بورقيبة يرى المسألة شخصيّة، أن ينادي شباباً بشعار «الشعب هو المجاهد الأكبر» فتلك إهانة له، لذلك هو من يعاقب... ومن يعفو أيضاً. من ذلك ما قيل للمؤلف ورفاقه: «سيادته غاضب. علينا أن نهدئه. ستكون الأحكام قاسيّة. قلب الأب الحنون سرعان ما سيستيقظ». وُضع المعارضون في السجن. هناك اكتشف الصادق أنّ المكان أكثر من مجرد جدران مغلقة، وعاش تجربة حوّلته بلا رجعة. في الرحلات الكثيرة بين السجون، عرف أماكن لم يكن يعرفها من قبل. وداخل السجن عرف بشراً من كلّ الأعمار وجهات البلاد والتوجهات السياسيّة. لعلّ أبرز الوجوه التي تناولها المؤلف هم حراس السجون، من الفتى الذي ارتمى في حضنه وأخذ يبكي نادماً على اختياره هذه المهنة إلى العم عمار الذي «طبّق معايير حقوق الإنسان وإن لم يعلمه إيّاها أحد»، وصولاً إلى السجين المكلف بإسناد الحُراس الذي تمنى «أن يقضم بما تبقى له من أسنان حبّة طماطم طازجة» فسرق من مؤونة رفاقه واحدة وأهداها له.

تروي السيرة سنوات سجن المؤلف ورفاقه في منظمة «آفاق» اليسارية

في السجن أيضاً بدأت المراجعات الفكريّة. بمرور الوقت، ابتعدت الجماعة عن الماركسيّة اللينينيّة وقربت أكثر إلى الطروحات الديمقراطية والنشاط الثقافي. يصف المؤلف هذا المسار: «بدأنا شيئاً فشيئاً نتبدّل، بدأت تشدنا مقولات الديمقراطيّة والأفكار التي بدأت تروج بخصوص النّضال من أجل حقوق الإنسان، وأغرمنا بنظريات الثورة العميقة والجذريّة، ثورة العقليّات، الثورة الثقافيّة والفكريّة». سيثمر هذا التحوّل مستقبلاً توجّه عدد من المساجين المذكورين في الكتاب إلى آفاق جديدة. انغمس النوري بوزيد أكثر في صناعة السينما، ونور الدين بن خضر في صناعة النشر، مارس هاشمي الطرودي الصحافة، فيما ساهم آخرون في تأسيس «الرابطة التونسيّة لحقوق الإنسان» وفرع «منظمة العفو الدوليّة».

بعيداً عن الماضي وتفاصيله، تختلف بداية الكتاب عن البدايات العاديّة لهذا الطراز من الكتب، إذ انطلق الصادق من الحاضر، ومن حكاية غيره. تتعلق قصّة البداية بشاب جاء لمنزل المؤلف حتى يصلح سخّانه، فيرى كتباً كثيرة. عرف بعد استفساره أنّها تبرعات موجّهة إلى مكتبات السجون، وتكون مدخلاً للحديث عن تعرّضه، بمحض صدفة سيّئة، إلى التعذيب من قبل أعوان أمن على امتداد أيّام. الكتاب إذاً ليس وثيقة للتأريخ فقط، بل هو أيضاً بيان سياسي موجّه للحاضر، عن جريمة التعذيب التي لم تختف بعد، عن السجون وأوضاعها، وعن منظومة العدالة المتعثّرة.

يأتي الكتاب استمراراً لسلسلة مؤلفات كُتبت على أيدي أفراد هذه المجموعة من المساجين الرفاق. بدأت السلسلة بكتاب جلبار النقاش «كريستال»؛ وفتحي بن الحاج يحيى (الحبس كذاب والحيّ يروّح: ورقات من دفاتر اليسار في الزمن البورقيبيّ)؛ ومحمد صالح فليس (سجين في وطني: صور من يوميات معتقل سياسيّ)؛ وأحمد كرعود (من دروس الشيخ خليف بمسجد القيروان إلى اليسار الماوي)